جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة – الجزائر
ISSN: 1112-4377, EISSN: 2588-2384
المجلد: 29 العدد 03 السنة 2025
مجلة المعيار
EL MIEYAR

التحوّل الثقافي الغربي ونمو الفكر الوضعي

The Cultural Transformation of the West and the Evolution of Positivist Thought

كريمة بريكي[1]
karimaphilosophie@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/01/31 **تاريخ النشر:** 2025/06/01
Received: 31/01/2025 **published: 01/06/2025**

ملخص المقال:

نتبين من خلال هذا المقال أن مطلب أوغست كونت هو تأسيس العقلية العلمية، وفقا لمبادئ عقلية صرفة، انطلاقا من ابستمية تبين أن الانسان كمعيار كوني، مبادئه تتجاوز ثقافات مختلف الشعوب، و هو ما يرفع مستوى الإيمان بالإنسانية كقيمة أخلاقية كبرى. ونحن نعلم أهمية هذا المنزع عند أوغست كونت حيث استطاع كونت بإبصار مرهف اكتشاف التواصل الإنساني ، في بناء التاريخ العلمي والسياسي والفكري، من ذلك يؤكد كونت على أن دخول الفكر العربي إلى أوربا في العصر الوسيط كان سببا من أسباب ظهور عصر النهضة ثم انبلاج العصر الحديث حتى انفجار الثورة الفرنسية.

كلمات مفتاحية: الفلسفة الوضعية، العرب، التاريخ، الحضارة، الإنسانية.

Abstract:

This article shows that Auguste Comte's goal is to establish a scientific mentality, according to purely rational principles, based on an epistemology that recognizes the human being as a universal standard, whose principles transcend the cultures of different peoples. This is what raises the level of belief in humanity as a major moral value. Comte emphasizes that the entry of Arab thought into Europe in the Middle Ages was one of the reasons for the emergence of the Renaissance.

Keywords: Positivism, Arabic, History, Civilization, Humanity.

(1) المعهد العالي للدراسات الإنسانية زغوان–تونس

مقدمة:

إن تاريخ العلم إنما هو في الحقيقة تاريخ تقدم العلم، وفكرة التقدم تتضمن معنى الارتقاء من الأسفل إلى الأعلى أو من الأدنى إى الأرقى ، أو من الحَسن إلى الأحسن بصرف النظر عن التقيمات الذاتية وربما أيضا من العجز عن الفعل أو المبادرة إلى القدرة عن الفعل والمبادرة . "تطور النظام" (Pierre .A,2004,p211)،وهي الفكرة الرئيسية التي يدور حولها الفكر الوضعي الذي يمدّنا بالوجاهة الابستمولوجية في إدراكه للسيرورة التاريخية وإن المتأمل للتاريخ العلمي الإنساني يتبين بكل وضوح أن في كل مرحلة من مراحل التاريخ البشري، هناك جهودا علمية ساهمت في التأسيس لمنظومات معرفية تجمع بين المحلي في خصوصيته التاريخية والثقافية ، والعالمي في تراكماته المعرفية التي تعدّ قاسما مشتركا بين أفراد الإنسانية، (Comte.C ,1875,p125) لنتبين ضمن هذه الشروط دور المنهج الوضعي في قراءة الأحداث التاريخية، وذلك استجابة لمناخها التاريخي والاديولوجي، وهو مناخ فرنسا القرن التاسع عشر زمن الاضطرابات المجتمعية والسياسية في أعقاب الثورة الفرنسية .ولعله الأمر الذي أدى دون شك إلى صراعات مجتمعية ،تقتضي ضرورة الجمع بين مفهومي النظام، والتقدم لأجل الخروج من الفوضى.

وإن كان يكّمن هنا الرهان الاساسي وهو أنّ نظام الفلسفة الوضعية ومخططها كما رسمه اوغيست كونت يقوم بالأساس على توجيه العقل البشري في جميع فروع معرفتنا. إن هدف أ.كونت هو تحرير الفكر بشكل كامل من الدغمائية التي كان يمارسها اللاهوت والميتافيزيقا. والتنبيه إلى ضرورة إخضاع الخيال بالكامل للملاحظة. وهذه المنهج يجعل فكرته متينة فكريا وابستمولوجيا . ولكونها مسالة حصيفة من حيث المحتوى النقدي والمعرفي.

وحتّى يتسنّى لنا الظفر بالأفق الذي يصبح عنده الاشكال الذي نقصد ايضاحه منظورا ، نحن مطالبون بالإشارة إلى أن دخول العلوم الوضعية إلى أوربا على يد العرب قد أوجد بذور هذه الثورة الهامة التي اكتملت الآن تمام الاكتمال فيما يتعلق بمعارفنا الفردية، وفيما يتعلق بمذاهبنا العامة فيما يتعلق بالنقد. يتعلق الأمر إذن بتوضيح الفكر الوضعي بمنحه إطارا موضوعيا يتجسّد فيه، لينشر الروح الوضعي في واقع المجتمع مبتغاه في ذلك تجسيد قيمتين أساسيتين الضروريتان للعصر الحديث . فالي جانب عمل أ.كونت في المدرسة الفرنسية وهي أرقى مَواضِع نشر العلم وإنتاج العلم فإنه خرج إلى الشعب الفرنسي ليثقفهم أي لينشر في صفوفه قيمة المقاربة العقلانية للعالم الخارجي وللعلاقات البشرية، ونشر قيمة الحرية. الم يتساءل كانط في رسالته "فكرة التاريخ العالمي من وجهة نظر كوسوبوليتية 1784 عن جدوى الحضارة اذا كانت الاخلاق عارية من الحرية ومن الحكم العقلي والتميز النظري، من ذلك ان كانط يجعل الحرية في جوهر الاخلاق ، بل يطابق بين الحرية والأخلاق(كانط،1983،ص44)،وبالتالي بيان مضار الاستعمار والرق باعتباريهما ظاهرتين مناقضتين تماما لما يجب أن يكون عليه الانسان الحديث. ولذلك ألقى أ.كونت سلسلة من المحاضرات في مؤسسة مدنية موجهة خاصة إلى العمال والنساء سماها "خطاب في الروح الوضعي" (Auguste.C,1844)،وهذا التوجه العام أفضى بكونت إلى موقفين عمليين جليلين :

–مناهضة السياسية الاستعمارية الفرنسية خاصة استعمار الجزائر

– وتكوين جمعيات من أجل مقاومة الاسترقاق ولعل العلم البرازيلي أو الراية البرازيلية مازالت شاهدة على ذلك اذ أنها تحمل رمز فلسفة أ.كونت كلها :النظام والتقدم

إن المطلوب هنا أن نفهم كيف يكون هذا الاجراء غير مباشر كفيلا بجعلنا ندرك بطريقة أفضل أهمية الذات الإنسانية في بناء الحضارة؟. و قد شكّل تثبيت السؤال بهذا المعنى منعرجا حاسما في مقاربة فكرة التاريخ . فما هو الحدث التاريخي ؟ومن هو صانع التاريخ؟ وبوجه عام كيف تتغير المجتمعات ؟

.

الاطار التاريخي للفلسفة الوضعية

1.2 منابع الثورة الفكرية

إن الفلسفة الوضعية ليست نتاجا لمفكر واحد ، بل هي نتاج حوار مباشر وغير مباشر بين جماعة من العلماء، والفلاسفة جندوا أنفسهم للتفكير في الازمة التي ألمت بالمجتمع الفرنسي. ماهي إضافة أ.كونت؟ ، وعلى ما يتراءى ل أ.كونت أن هذا اللفظ "الوضعي" رائجا في ثقافة القرن19 ، عمل أ.كونت إلى تفكيك ودراسة مفهو معنى "وضعي" ليجعل منه صفة محددة لتنسيق مميز من التفكير فاستخدام لفظ "وضعي" لا يعرفنا بالفلسفة الكونتية بقدر ما تعرفنا بالمناخ الفكري والاتجاه المعرفي في ق 19 ، وهذا المناخ الفكري تمتد جذوره الى بداية نشأة العلم الحديث أي ق17، حيث أن محددات مفهوم الوضعي هي ذاتها محددات لفظ وضعي لذلك يثار التساؤل عن علاقة التحولات الثقافية في الغرب بتطور الفكر الوضعي ؟

سنتبين الأسس المنهجية لهذا التساؤل؟

إنه من المفيد أن أشير إلى أنه منذ نهاية القرن السادس عشر والمجتمع الانساني يمر بثورة عامة على المستوى السياسي والمعرفي والمجتمعي وخاصة الفكري ، كان هدفها الرئيسي هو الإصلاح التدريجي والكلي لنظام المعرفة الإنسانية برمته، و محاولة تأسيسه على أسسه الحقيقية، القائمة على الملاحظة والاستدلال.

حيث يصرف أ.كونت جهدا غير يسير من تفكيره حول إمكان انتشار الروح النقدي في العقلية الأوروبية من جهة علاقتها بالتجربة الواقعية وهو الأمر الذي مَكّن من بلوغ مستوى من النضج هيأها لرفض التعتيم المسيحي مِمَا انتهى إلى انشطار الكنيسة المسيحية إلى كاثوليكية، وبروتاستناية في أوائل عصر النهضة الأوروبية. كما كان العرب المسلمون سبب انقسام الكنيسة المسيحية إلى اورتودوكسية شرقية، وكاثولوكية غربية رومانية خاصة في القرن الحادي عشر مع إعلان القطيعة بين روما والقسطنطينية. وإنه في هذا المستوى بالذات ، انما يظهر لنا وجه اقدام أوغيست كونت على تأكيد الارتباط بين التاريخ، والسياسة: أي التاريخ العام والسياسة على نطاق واسع: وهنا ينكشف ملمح من معنى ضرورة التفكير في التطورات التاريخية الماضية من أجل تصور المستقبل . فالحضارة عبارة عن جسد حيث ترتبط أعضاؤها على غرار ارتباط أعضاء الجسد العضوي"(هيبوليت تين،ص31)

وباستواء الرؤية على هذا النحو يمكن القول أنه من الصعب تحديد أصل هذه الثورة على وجه الدقة؛ كما هو الحال بالنسبة لجميع الأحداث البشرية العظيمة الأخرى، أنها كانت مستمرة باطراد وتزايد، ولا سيما منذ أعمال أرسطو ومدرسة الإسكندرية، ثم منذ دخول العلوم الطبيعية إلى أوروبا الغربية على يد العرب.

وبمثل ذلك ندرك أن هذه الثورة الأساسية، التي مهدت لها الأعمال المتتالية في جميع القرون السابقة، وخاصة من العرب قد حددت بشكل نهائي ومباشر من خلال قوة الدفع الجديدة العظيمة التي أعطتها مفاهيم روني ديكارت ،ومبادئ فرنسيس بيكون، واكتشافات جاليليو في آن واحد للعقل البشري".أي عصر عودة الاوربيين إلى التراث الفكري والفلسفي والعلمي اليوناني والروماني عودة الأوروبيين

الى منابِعِهم الثقافية ،بعد أن ضلوا لمدة ثلاثة قرون باحثون في العلوم اليونانية عن طريق التراجم العربية حيث أن في عصر النهضة وقع الاستغناء عن التراجم العربية وارتبطت علاقتهم بالعلوم اليونانية و الآداب الرومانية مباشرة وبذلك نشأت عندهم حركية فكرية جديدة ونشاط فكري جديد ،لذلك أدرك الفكر الأوروبي أنه لا من سبيل للنهوض العلمي وتحقيق إنسانية الانسان إلا بتقويض النظام الكنسي اللاهوتي ، وبدأ تبعا لذلك الصراع بين النسقيين العلمي والديني .

2.2 الصراع بين المحافظين والثوريين

لا يتطلب فهم الواقع والتعاطي مع ما يطرحه من قضايا مجرد محايثة له، أو التماهي مع تفاصيله، لأن هذا التماهي لا يكون ممكنا إلاّ متى تمّ الكشف عن الأدوات التي من شأنها أن تنبه الوعي بما يحصل في الواقع. لذلك كان من مشاغل أ.كونت في أول عهده بالإنتاج النظري هو البحث عن أسباب "إعادة تنظيم المجتمع على أسس علمية "(Auguste. C,2822)على ما يبدو جليا في باكورة أعماله، في شبابه المبكر و هو كتابه مخطط الأعمال الضرورية لإعادة تنظيم المجتمع الذي وضعه سنة1822 ونرى أنه مفيدا في القصد الذي يعنينا أن نوضح أنّ أ.كونت في هذا الكتيب يشير إلى أن ما يجري عليه الخصام بين "الثوريين" الداعين إلى "تعميق المدّ الثوري حتى منتهاه من ناحية و"المحافظين " الداعين إلى انهاء الثورة والعود إلى "النظام القديم" من ناحية أخرى، إنما هو الجهل بالسببية التاريخية اذ هما يتقاسمان الاعتقاد أن "الثورة" انطلقت بإرادة فرد أو مجموعة أفراد، وأنه يمكن وضع حدّ لها بإرادة فردية أو جماعية مضادة . في حين أن الظواهر الاجتماعية والتاريخية تحكمها قوانين ذاتية ليس للإرادة عليها سلطان كلي حقيقي.

غير أنه يمكن أن ينحل وجه الاشكال عندما ندرك أن لهذا النزاع واجهته العملية ذلك أن النظام القديم لم يتوار نهائيا عن الأنظار ،كما أن النظام الذي سيحل محلّه لم يتم بعد تنظيمه، حيث أنه طال أمد الكفاح بين التفكير اللاهوتي ،الميتافيزيقي ، وبين التفكير الوضعي .وامعانا في الإجلاء يذهب أ.كونت إلى ما مفاده أنه لا يمكن الحَسم في هذا الصراع ما لم نقف على وظيفة العلم ،واذا قد تبيّن هذا ، فيجب أن نشير إلى أن العلم من منظور أ.كونت يتمثل بالأساس في بيان دلالة الظواهر بالنظر إلى علاقاتها ببعضها البعض والكشف عن الصلات التي تربط بين الوقائع في قوانين ، والملاحظة هي التي تمكّن العلم من ذلك ، وبهذا المعنى يكون العلم هو تأصيل لعلاقة القبلي بالبعدي ، والذاتي بالموضوعي والميتافيزيقي(Juliette .G,2002 ,p404).

وقد يترتب عن جهل تلك "السببية " الإعتقاد الفاسد أن الأحداث الاجتماعية يمكن أن تتغير في هذا الاتجاه أو ذاك بحسب إرادة هذا الفرد أو ذاك ، وكأنه لا وجود لحتمية موضوعية تحكم حركة التاريخ ، باعتبار أن الثوريين يخشون عودة النظام القديم، في حين يرغب المحافظون في بقائه وكأنما زواله لم يكن ضرورة تاريخية بل مجرد عرض، أو عثرة من عثرات الزمان يمكن تداركها. ويكّمن القاسم المشترك بينهما هي الأسباب التي أفضت إلى الثورة وهي على نوعين متضافرين، مادي أو قل تدقيقا اقتصادي، وفكري أو روحي. وهو ما من شأنه أن ينبئنا إلى ضرورة فهم القدرة الصناعية على أنها قدرة "الفنون والحرف"، لتحل محل القوة الإقطاعية أو العسكرية(Auguste .C ,1852,p174)

أما فيما يتصل بالبعد المادي الاقتصادي، فإن الثورة الفرنسية بدأت تتهيأ أسبابها منذ القرن الثاني عشر يوم بدأت تنشأ في أوروبا "البلديات" أو ما يسمى "الكومونات" على حساب النظام الاقتصادي الإقطاعي وكان ذلك بداية نشأة البورجوازية الحديثة التي فجرت

الثورة الفرنسة. وأما في ما يتعلق بالسبب الروحي أو الفكري فإن أ. كونت يعود به إلى العرب اللذين ادخلوا إلى أوروبا الروح العلمي وفتحوا أبصار الأوربيين على العلم اليوناني –العربي(Auguste.C,1854,p19).

ونتيجة لهذا الصراع لم يعد المجتمع نظامًا للقهر، بل نظامًا للإنتاج. وهي الظاهرة التي برزت بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر، حيث انتشرت الحركة المجتمعية بسبب ازدياد النشاط الصناعي والتجاري وعمل النقابات ضد الإقطاعيين ومن أجل حماية العمال. هنا ينبغي أن نشير إى أن أ. كونت قد اعتبر أن هذين العنصرين منطلقا لأبحاثه المتصلة بفهم العصور الحديثة لما فيها من خصائص مميزة لها عن باقي عصور التاريخ البشري كما ورد ذلك بوضوح في مؤلفه *Sommaire appréciation de l'ensemble du passé moderne*, حيث كانت نقطة الانطلاق كما يلي: خلال القرن الحادي عشر، كان النظام الإقطاعي و اللاهوتى قد تأسس بشكل نهائي، فيما يتعلق بالسلطة الزمنية والروحية، وفي الوقت نفسه، ظهرت عناصر نظام اجتماعي جديد، وهي القدرة الصناعية، أو قدرة الحرفيين (Auguste.C,1822,p23)

وقد استقصى أ.كونت في الامارات الدالّة على صراع القدرات ضد السلطات، وهو صراع يمكن اختزاله إلى صراع طبقي. فالتاريخ الظاهر هو تاريخ صراع "الملوك ضد البابوات"، وصراع السلطات الملكية والإقطاعية ضد بعضها البعض".(Auguste.C,1854,p52),وهو ما من شأنه أن يحملنا على فحص مقتضى القول لاستجلاء المقصد الحقيقي ، ومن أجل بيان أن التاريخ الحقيقي، هو في أصله تاريخ صراع بين السلطات المحلية الذي اتخذ في البداية شكل تحالف كوميونات ضد جزء من السلطة الزمنية لمهاجمة الجزء الآخر".(Auguste.C,1854,p53) في إنجلترا، إلى جانب "اللوردات" ضد الملوك، بينما في فرنسا اتحدوا مع الملوك ضد الإقطاع كان لا غنى عنه للحفاظ على النظام المادي المباشر، إلا أنه يميل إلى إدامة الوضع الثوري. لذلك فمن المؤكد أن الحضارة قد تقدمت باستمرار وفي جميع النواحي. وبهذه الطريقة، عمل العرب على تمهدوا الطريق أيضًا لميلاد العلم الحديث .

وإذا قد تبيّن ذلك فقد ينبغي أن نشير إلى أن وظيفة الفكر الابستمولوجي هي الوقوف على تَرَقي الفكر الإنساني في الوعي بحقائق العالم في كشف قوانين العالم اعتبارا إلى أنه بقدر ما تنكشف للإنسان قوانيين العلم الحقيقية تندحر أو تنقرض الدوكسا او اللاعلمي (الأسطورة – السحر) . وليس ما يحتاج إليه بيان إى أن وظيفة الابستمولوحيا هي البحث في سبل ارتقاء الإنسانية إلى وعي اجلاء، وبالتالي حرية أشمل اذا أنه لابدا من الجزم أن كل المفاهيم، وحتى كل المسائل التي يطرحها علينا العقل المحض، لا تكمن في التجربة، بل في العقل... إن العقل وحده هو الذي ولّد هذه الأفكار في حضنه، ولذلك فهو ملزم بأن يعطي حسابًا لقيمتها أو عدم قيمتها(Gilles. D,1967,p3)

والقول الجامع في هذا المقام هو أن الابستمولجيا مقاربة فلسفية للإنتاج العلمي لأعمال العلماء وهذه المقاربة تترصد في تلك الاعمال لحظات مهمة في تاريخ الفكر الإنساني عامة وفي تاريخ العلم خاصة ونعتبر هذه اللحظات لحظات تغير أو إنتقال من الأدنى إلى الأرقى أو بوجه عام من ابستمية إلى ابستمية أخرى.

الفلسفة الوضعية والمنعطف الإنساني الحاسم

1.3: الوضعية وفن استعمال التاريخ

لقد عمل أ.كونت على نقل المضامين العلمية الوضعية إلى العالم الإنساني وتطبيقها على المجال التاريخي والاجتماعي حيث يكمن الخيط الرفيع والجامع في إدراك الأسباب وقد تُرجمت نصوص أرسطو وأبقراط وجالينوس، وأرخميدس وبطليموس خلال القرنين التاسع والعاشر، مما مكّن العرب من أن يأخذوا مكان الإغريق، وبذلك لعب العرب دور الوسطاء ومهدوا الطريق لميلاد العلم الحديث(Juliette .G,2002 ,p16)

وقصد استيفاء النظر في هذا الأمر يستفيض أ.كونت في بيان أن التاريخ العام يعتمد في الواقع على الوضع التاريخي الذي لوحظ في الغرب، مع الإشارة إلى مفهوم العلم الإيجابي بقدر ما هو في حد ذاته نتيجة لتاريخ موضوعي للذكاء البشري، وليس مما يحتاج إليه بيان هو تأثير التاريخية في الممارسة السياسية .

وممّا يطمح أ.كونت أن يضفي عليه صوغا أوّليّا هو التأكيد على أهمية القرنين الحادي عشر والثاني عشر بالنسبة لتطور الغرب. فمن جانب أول كانت تلك الفترة أوج النظام اللاهوتي والعسكري؛ ومن ناحية أخرى، كانت فترة ظهور المبدأين الموجهين اللذين كانا سيشكلان عناصر النظام المستقبلي وهما القدرة العلمية، والقدرة الصناعية. لذلك نجد أن مرسوم ميلانو (313 م) قد منح للمسيحيين الحرية الدينية وأعاد إليهم ممتلكاتهم المصادرة، كما أن في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (379-395 م)، تحولت المسيحية من دين متسامح إلى دين الدولة. وهو الأمر الذي دفع الكنيسة للتخلي عن موقفها الدفاعي، وتعززت قوتها الروحية التي حققتها من خلال اعتناق البرابرة؛ ومنذ ذلك الحين، يمكن اعتبارها مسيطرة. رأى كونت أصل السلطة الزمنية في الغزوات الجرمانية وفي "التقطيعات الأولى للإمبراطورية الرومانية" ((Alexis De Tocqueville,1884,p56)

وإنه ضمن هذا الأفق نشير إلى أنه على الرغم من أن القانون التاريخي للحالات الثلاث للبشرية – الذي كان ينظر إليه أ.كونت بشكل عام على أنه قانون لاهوتي، ثم ميتافيزيقي، وأخيراً إيجابي – لم يظهر حتى عام 1822، في "خطة الأعمال العلمية اللازمة لإعادة تنظيم المجتمع"، إلا أن أوغست كونت عمّق تفكيره في التاريخ ونشر مقالاً موسعاً في مجلة "الأورجانيتور" بعنوان "تقدير موجز لمجمل الماضي الحديث" سنة 1820.

وكان الهدف من هذا الكتيب هو تسليط الضوء على الثورة الغربية، وموضوعه: تعريف النظامين الاجتماعيين العظيمين – أحدهما في الماضي والآخر في مهده – في أوروبا من وجهة نظر حضارتها، أي تقييمها وفقاً لتاريخ طويل الأمد. إن سلسلتين من الأحداث تتكشفان في وقت واحد وبشكل متناقض، فكلما وصل أحد النظامين إلى مرحلة النضج الكامل، تبدأ بذور النظام الذي سيدمره بالنمو في داخله. هذا هو جوهر فكرأ. كونت التاريخي، الذي كان يستدعيه من حين لآخر وقد عمل أ.كونت على إدخال مفهومين جديدين في التأريخ: مفهوم النظام ومفهوم السلسلة. يمتد النظام القديم، سواء كان لاهوتيًا أو بابويًا، عسكريًا أو إقطاعيًا، كما هو مبثوث في هذا الكتيب، من لحظة نشأته، القرن الثالث أو الرابع، إلى لحظة سقوطه، القرن الثامن عشر. أحد المبدأين الموجهين يسبق الآخر: السلطة الروحية.

فهذا التاريخ الطويل هو تاريخ ممتد بين حضارات وأديان وشعوب وبلدان مختلفة ولكن العلوم تتطور فيها رويدا رويدا وبهذا التقدير تصبح المقاربة الأبستمولوجيا مقاربة تاريخية أي أن الابستمولوجية هي النظر في الإنتاج العلمي في التاريخ: ومعني ذلك أن العلم هو نتائج نضال فكري دائم ،والابستمولوجيا هي تأمل تلك الحركة التاريخية التي تُنتج النظريات العلمية ومعنى ذلك أن الأبستمولوجيا لا تبني نظرية نهائية في العلم وكأن العلم شيء مطلق ونهائي بل إن التأمل الأبستمولوجيا هو تأمل في حركية العلوم المنتجة للحقيقة العلمية في عصر ما . وهكذا يكون القول بإمكان الجمع بين فكرتي تاريخ العلوم والابستمولوجيا أمرا ممكنا وهكذا يصح عندنا أن نتحدث عن صيرورة العلوم في التاريخ وتغير بالتالي الابستمولوجيا مع التغير التاريخي تغير نظرية الحقيقة العلمية وذلك اعتبارا إلى أن الابستمولوجيا تتجاوز النظرية الكلاسكية في المعرفة التي تركز على الحديث عن العلم بصيغة المفرد .

2.3 : دور العرب التاريخي والقيم الإنسانية

يمكننا الإقرار بأن أ.كونت إنفرد عن غيره من المصلحين الذين سبقوه والذين عاصروه، وحتى الذين جاءوا من بعده بصرامة منهجية ومعرفية لذلك بحثت عن هذا التمايز المعرفي والمنهجي إذ أن المذهب الوضعي الكونتي يدرس الذات العامة كغيره من المذاهب لكن هذه الذات العامة في مذهب أ. كونت ليست ذلك العقل الذي يدرك نفسه خارج أو فوق شروط الزمان والتجربة، ولهذا ومع التركيز على مسألة تحليل التاريخ العقلي للإنسانية، أي بدلا من أن تتألف من تحليل منطقي للفكر بوضعه في مقدمة كل القضايا الفلسفية، وبهذه الميزة المنهجية كانت الفلسفة الوضعية لا تروم مجرد وصف التاريخ ومحاكاة التقدم ،بل هي فلسفة اثبتت قدرتها على الفعل في هذا التاريخ .

ولعلّ أوّل ما يتراءى لنا في هذا المستوى من التحليل نلمح لدى أ.كونت نمط مثيرا من القصد حيث أنه قد صرف همّه إلى سؤال مداره ما هو دور العرب التاريخي في الارتقاء بأوروبا إلى العصر الحديث من ناحية العلوم والفلسفة وحتى الحياة الدينية؟ . إنه من هنا افتتح أ.كونت طريقا جديدا وصار مطلوبه أنّ يبيّن ان مدار المسألة برمتها إنما هو تعريف الكرامة الإنسانية وانما هي ضرب من الاعتراف بفعل الأخرى في التاريخ دون تفرقة ولا احتقار ،وهو حقّ جاوز القدرة على طمس الاخر. وهي عين الرؤية التي دفعت بكونت إلى النظر إلى العربي نظرة ايجابية.

ولان أ.كونت يؤمم وجهه صوب مسالة الكرامة الإنسانية نجده يعارض بشدة استعمار الجزائر، فندّد به في سياق إدانة العقلية الاستعمارية ككل(Auguste. C,p463) كما أنه على وعي بأن تحديد فكرة المساواة والكرامة الإنسانية ليست الجزائر وحدها المعنية بها ، بل أيضا "كورسيكا"، وحتى "الألزاس"، تظهر بوضوح العجز المتزايد للهيمنة الأجنبية الطويلة ضد أي قومية واضحة. وإزاء هذه الأساليب اللاأخلاقية يقول أ.كونت في هذا الإطار "إني أتجاسر هنا على أن أعلن في وجه هذه الضروب من الهجمات العسكرية الأكثر عنفا ، وباسم الوضعيين الصادقين عن أمنيتي في أن أرى العرب يطردون الفرنسيين من الجزائر بحزم إذا لم يعرف كيف يُعيد هؤلاء الفرنسيون الجزائر إلى أهلها بشرف"(Auguste. C,p379). هكذا يظهر بصورة بيّنة فالمبادرة باستعمار الجزائر ليس عملا منحطا أخلاقيا فحسب، بل هو نيل من شرف فرنسا ذاتها.

وممّا يدعم مَيلنا إلى القول بأن مناهضة استعمار الجزائر مترتبة عن تقدير أ.كونت للدور المعرفي العربي. وهو ما نستشفه من خلال رسالته إلى كبير وزراء الباب العالي في الرابع من شهر فيفري سنة 1853 يقول فها "يقدم قرننا، في أوروبا، تناقضاً مميزاً بين سياسة الشرق وسياسة الغرب. فالسلطات الغربية، بعد أن أصبحت عاجزة عن توجيه الحركة الاجتماعية، لا تمارس الآن سوى الضغط الأعمى الذي، وإن كان لا غنى عنه للمحافظة المباشرة على النظام المادي، يميل إلى إدامة الحالة الثورية. ولكن القادة الشرقيين، الذين ظلوا حقاً على رأس كل

حكومة، يدفعون إلى الخير ويقاومون الشر" (Auguste.C, 1853,p58)، لذلك أعرب عن اعتقاده أن الدول الإسلامية مؤهلة أكثر من الدول المسيحية لتبني الفلسفة الوضعانية وانجاز الحداثة وذلك في تقديره لسببين:

أولهما سياسي؛ وهو أنّ الإمبراطورية العثمانية بقيت متماسكة والدولة فيها قائمة، والحكام مطاعون، وبالتالي فهم قادرون على قيادة التغيير نحو العصر الحديث خلافا لما آلت إليه الدول أو الحكومات في أوروبا من أوضاع مهترئة بحكم انتشار الفوضى الثورية لا تجعلها قادرة على الإدارة اليومية للشأن العام إلا بالقوة الغاشمة فضلا عن تحقيق المشروع الحداثي

والسبب الثاني؛ هو أن الإسلام أقرب من المسيحية إلى العقلانية وبالتالي أكثر تقبلا للوضعانية و أكثر قدرة على التلاؤم مع قيم العصر الحديث إضافة إلى ما يمكن أن يلعبه الإسلام في نشر روح العصر والمدنية الحديثة التي هي عنده الروح الوضعانية باعتبارها الروح البديلة عن الروح اللاهوتية، والروح الميتافيزيقية .

وإنه تحت هدي هذا النوع من النظر نلاحظ أن أ.كونت يوازن بين المسيحية والإسلام من حيث ما وفره كل منهما من مناخ للعلوم والفنون استنادا إلى درجة تبلور مبدأ التميز بين السلطتين الدينية، والدنيوية، مع اقراره أنه يمكن للإسلام أن يعوض عن عجز الكاثوليكية أفضل مما فعله البزنطيون في مرحلته السابقة. فبعد أن حافظت على الخلط السابق بين القوتين وجدت نفسها تلقائياً في غنى عن التوضيحات البطيئة والمؤلمة التي فرضها على الغرب إنفصال سابق لأوانه لا يتوافق حقاً مع المبدأ اللاهوتي

لقد بات واضحا الآن إقرار أ.كونت بتفوق قدرة الإسلام على المسيحية في الانخراط في الحداثة ،بل يذهب أ.كونت إلى ما أبعد من ذلك فيعتبر "الرسول العربي" نفسه وضعانيا، أو قل حداثيا قبل الأوان فقد خيّل لكونت أن "الرسول العربي" انتبه بشرف إلى ما في التمييز بين السلطانين الديني، والدنيوي من ميزات أخلاقية ، وفكرية غير أن عبقريته الاجتماعية المتميزة تفطنت إلى أن هذا الاكتمال الحاسم (المتمثل في التمييز بين السلطانين الديني والدنيوي) يتطلب نمطا حضاريا أكثر تقدما من الحضارة التي يقودها الفكر اللاهوتي. غير أنه لما تحسس ما سيفضي إليه ضرورة هذا التمييز السابق لعصره- وإن كان رائعا – من الفشل فإنه اكتفى بوضع حلّ وسط أيسر وأفضل تلاؤما مع طبيعة النظام الفكري اللاهوتي"(A.Comte,1875,319).

وفي تقدير أ.كونت أن هذا التمايز الأولي بين الديني، والدنيوي هو الذي أهل الإسلام -خلافا للمسيحية- إلى أن يطور العلم والفن(Auguste. C ,1852 ,p59) وأن يسمح لحقوق الإنسان بالتبلور في ديار الإسلام. وهنا نجد أ.كونت قد وجد الحلّ حين اعبر أن "العبقرية الإسلامية يمكن أن تكون أقلّ من العبقرية المسيحية تضادا مع الظهور النهائي للدين الوضعاني باعتبار أنها عبقرية كانت تنزع باستمرار نحو الواقع وفقا لمعتقدها الأكثر بساطة واتجاهها الأكثر عملية" (Auguste. C, *820*,p235) . وهو ما يشير إليه في الرسالة المذكورة سالفا من خلال ذكره لمنع الرق في تركيا وتقلص ظاهرة تعدد الزوجات فيها، أو في الجزائر على ما هم مشهود به من قبل بعض الانتروبولوجيين الفرنسسين في ذلك العهد (Th, Jouffroy, 1824)، ولن ننسى أبدًا أنكم أشرتم إلى التقدم المزدوج الذي هو الآن أهم ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية الآن، وذلك بإعطائكم مثالًا ساطعًا للزواج الأحادي، وبإبطالكم سوق الرقيق التي كانت لا تزال تشوب عاصمة آل عثمان. ولم يكد العرب يشرعون في إنشاء مدارس لتعليم العلوم الرصدية في الأجزاء التي فتحوها من أوربا حتى انبعثت حماسة عامة توجه جميع العقول المتميزة نحو هذا النور الجديد. وسرعان ما ظهرت مدارس مماثلة في جميع أنحاء أوربا الغربية؛ وأنشئت المراصد وغرف التشريح وخزائن التاريخ الطبيعي في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا. في وقت مبكر من القرن الثالث عشر، لدرجة أن العديد من رجال الدين البارزين،

بمن فيهم اثنان (*Alexis de Tocqueville,2005,413*) من البابوات، في نفس الوقت تقريبًا، ذهبوا لإكمال تعليمهم في قرطبة، حيث درسوا العلوم الرصدية على يد معلمين عرب.

وقد عمل خليفة قرطبة الثاني (961 إلى 976)، على جذب العلماء والأدباء إلى قرطبة. وقد أهدى مكتبة الجامعة 400,000 مجلد "في الطب والرياضيات والهندسة والفلك، فكان العلم العربي وريث معارف العصور القديمة المحفوظة والمستوعبة في مدارس بلاد ما بين النهرين، معلم العلوم الأوروبية". ولذلك أمكن لنا أن نقول مع –أ. كونت وانطلاقا منه – أن العرب طرف تاريخي في اندلاع الثورة الفرنسية. وهو ما يتجلى لنا من خلال تحليل أ.كونت لما يستبطنه رفض الثورة ومحاولة إحياء L'ancien régime (Auguste. C,p17) من جهل بحقائق التاريخ وبما يحكم حركته من سببية عميقة فهو يذهب في كتاب المخطط للأعمال الضرورية لإعادة تنظيم المجتمع إلى أنه من غير المجدي اعتبار الثورة وكأنها لم تحدث لأن ذلك يوجب إلغاء فلسفة عصر الأنوار التي هي السبب المباشر في إسقاط النظام القديم وإلغاء فلسفة الأنوار يتطلب إلغاء عصر النهضة وما شهده من تجديد روحي(Auguste. C,1822,p75).

ولا يمكن أن يكون هناك شك معقول في هذه الحقيقة العظيمة بالنسبة للفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى يومنا هذا، أي منذ دخول علوم الملاحظة إلى أوروبا على يد العرب وتحرير المجتمعات. فقد ثبت أن العرب قد تفوقوا عليهم. وكذلك الأمر بالنسبة للصناعة، على الأقل في كل ما يتطلب قدرة حقيقية، وليس هو أثر ظروف عرضية بحتة. وحتى لو استثنينا الفنون الجميلة، فإن هذا الاستثناء، الذي يمكن تفسيره بطريقة طبيعية تماماً، سيجعل الاقتراح عاماً بما فيه الكفاية. وأخيراً، أما بالنسبة للتنظيم الاجتماعي، فمن الواضح تماماً أنه في نفس الفترة حقق تقدماً من الدرجة الأولى، من خلال تأسيس المسيحية وتكوين النظام الإقطاعي، متفوقاً على التنظيمات اليونانية والرومانية.

واذا نحن تدبرنا تلك المسيرة التاريخية وقفنا على أمرين مختلفين نسمي الأولى الوصلة الحضارية أو التاريخية أو الإنسانية ،والأمر الثاني هو الفصلة العلمية: الظاهرة الأولى تدل على اتصال الجهد البشري منذ قديم الزمان حتى اليوم فيمكن مثلا أن نقول أن العلوم بدأت في مصر القديمة وفي العراق القديم وامتدت إلى اليونانيين في أثينا بالخصوص، ومن أثينا انتقلت إلى بغداد ومن بغداد انتقلت إلى أوروبا وخاصة إلى باريس في السوربون ولندن وفي إيطاليا فهذه المدة التاريخية القديمة الممتدة منذ قدماء المصريين أي منذ 3 أو 5 الألف سنة قبل المسيح حتى وصلت تلك المعارف إلى أوروبا عن طريق اليونانيين منذ ق7 قبل الميلاد ثم إلى العرب في بغداد في القرون الوسطى بداية من ق10 ومن بغداد إلى أوروبا بداية من ق 12 م حتى اليوم .

خاتمة:

إن النتيجة المستخلصة هو اعتبارا أول، سيتعزز إلى حدّ كبير إذا أخذنا بعين الإعتبار الهوية الملحوظة في تطور حضارة الشعوب المختلفة التي لا يمكن افتراض وجود تواصل سياسي بينها. ولا يمكن أن تكون هذه الهوية قد نتجت إلا بتأثير مسيرة طبيعية للحضارة موحدة لجميع الشعوب، لأنها مستمدة من القوانين الأساسية للتنظيم البشري المشتركة بين الجميع. حيث أن تفاعل الأفراد في التاريخ ،هو وحده الذي يمكّن الفكر من الإنتقال من طابعه المتعالي إلى بُعده المحايث وهكذا، على سبيل المثال، فإن العادات التي كانت سائدة في الأيام الأولى لليونان، كما

وصفها هوميروس، توجد اليوم مع تشابه كبير جداً بين الأمم المتوحشة في أمريكا الشمالية، والنظام الإقطاعي الذي لوحظ بين الماليزيين بنفس الطابع الأساسي الذي كان عليه في أوروبا في القرن الحادي عشر، إلخ، من الواضح أنه لا يمكن تفسيره إلا بهذه الطريقة.

وهناك اعتبار ثانٍ، قد يجعل من السهل جداً أن نشعر بوجود قانون طبيعي يشرف على تطور الحضارة. لا يمكن أن يكون هناك شك، إذن، مما تقدم، في أن تقدم الحضارة، إذا ما نظرنا إليها في عناصرها، يخضع لقانون طبيعي وثابت، يهيمن على جميع الاختلافات البشرية الخاصة من ذلك يقول كلود ليفي ستراوس على الحضارة التي "لا تنفك عن التنوير والرغبة في التعلّم من أيّ شخص يريد أن يعلّمنا شيئًا نافعًا "(ليفي ستراوس، 2001، ص53).

وبما أن حالة التنظيم الاجتماعي تتبع بالضرورة حالة الحضارة، فإن نفس الاستنتاج ينطبق على الحضارة إذا ما نظرنا إليها ككل وفي أجزائها الفردية. ومن ثم فإن الحقيقة الأساسية للسياسة العملية العامة، ونقطة انطلاقها الإيجابية، هي تحديد اتجاه الحضارة، من أجل جعل العمل السياسي متماشياً معها، وبالتالي جعل الأزمات الحتمية التي يتعرض لها الجنس البشري في مروره المتعاقب عبر حالات الحضارة المختلفة لطيفة وقصيرة قدر الإمكان. ومهما يكن من أمر فإنه ليس اليوم للتفلسف أن لا يأخذ في الاعتبار ما يجري في مجال العلوم من اكتشافات وتحولات نظرية وتقنية وما يجري في واقع البشرية من مشاكل وما يطرح من مسائل. وما يترأى من آمال في ما يسميه أ.كونت "النظام والتقدم" اعتبارا إلى أنه لا يمكن في الحقيقية الفصل بين النظري والعملي لأن الفكر يتجسّد في الابتكارات العلمية عبر التاريخ.

المصادر والمراجع:

- Alexis de Tocqueville,(1991) *Travail sur l'Algérie in Œuvres complètes, Ed. Gallimard.*
- André,Pierre(2004),Le sens du progrès une approche historique et philosophique ,Flammarin ,Paris
-Alexis De Tocqueville,(1848). De la démocratie en Amérique ,Paris
-Auguste .Comte (1975),*Cours de philosophie positive*, Paris, Hermann .
Auguste Comte (1854), *« Examen du Traité de Broussais sur l'irritation* ,Paris.
-Auguste Comte(1854), *Sommaire appréciation de l'ensemble du passé moderne* , Paris, Thunot.
-Auguste Comte(2001), Plan des travaux scientifiques nécessaires pour réorganiser la société , Paris, L'Harmattan,.
-Auguste Comte(1965), Catéchisme positiviste , Garnier Flammarion ,Paris.
-Auguste, Comte (1846), Système de politique positive ,Paris,1864
-Auguste,Comte(1898), méconnu, Auguste Comte conservateur .Extraits de son œuvre *finale*(1851-1857) ,Paris
-Auguste,Comte, Lettre,(1853), « A son Excellence Reschid- Pacha, ancien grand visir de l'Empire Ottoman, in *Système de politique positive ou Traité de sociologie positive instituant la religion de l'humanité* ,Paris
Gilles, Deleuze (1967). *La philosophie critique de*, Paris, P.U.F
-Th, Jouffroy(1824), *Mélanges philosophiques*, 1er Edition ,Paris,
Tonatiuh useche sandoval, L'idée d'Europe dans la politique positive d'Auguste Comte ,in Philosorbonne,N 3

-تن هيبوليت ،(1898) مدخل الى تاريخ الادب الانجليزي ،منشورات هيث

-ليفي ستروس كلود،(2001)العدمية والسياسة، ترجمة أولييفة سيداين،باريس،

-كانط ايمانويل ،(1983) فكرة التاريخ العالمي (نصوص مختارة)، ترجمة بيوبيتا ، باريس ، منشورات غونتييه

.